

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاصٌ بالعصر العباسي الأول ، وكان طبعياً أن أبدأ فيه بدراسة الحياة العباسية التي فَرَّصَتْ نفسها على الأدباء العباسيين فَرَّصًا ، سواء الحياة السياسية وما كان يَجْرِي فيها من نُظُم وظروف وأحداث مختلفة ، أو الحياة الاجتماعية وما كان يَشِيع فيها من تحضر وترف وشغف بالغناء وإغراق في المحون وزندقة وزهد ونسك . أو الحياة العقلية وما التحم بها من ترجمة الثقافات الأجنبية ونشاط الحركة العلمية ونَقْل علوم الشعوب المستعربة ووضع العلوم اللغوية والتاريخ والعلوم الدينية والكلامية .

وقد بسطتُ القول في ازدهار الشعر العربي حينئذ ازدهاراً رائعاً ، إذ أكبَّ الشعراء على العربية يتمنونها ويمثلون ملكتها وسليقتها تمثلاً دقيقاً ، نافذين بذوقهم المتحضر إلى أسلوب مصفى يجمع حيناً بين الجزالة والرصانة ، وحيناً يجمع بين الرقة والعدوبة . وكان تأثيرهم عميقاً بالثقافات المترجمة وبما كانوا يستمعون إليه من محاورات المعتزلة مما أثار في عقولهم ونفوسهم كثيراً من المعاني والخواطر التي لا تكاد تُحصى ، ودفعهم إلى التطور بموضوعات الشعر الموروثة تطوراً نلمس فيه روح العصر وخصب الفكر ورهافة الشعور . وأضافوا إليها موضوعات جديدة بما نفذوا إليه من تحليل المعاني والملاءمة بين أشعارهم وبيئاتهم المتحضرة وحياتهم اليومية . وفتحوا صفحة لم تكن تَخْطُر لأسلافهم على بال ، هي صفحة الشعر التعليمي الذي صاغوا فيه من المعارف والتاريخ والأمثال والقصص الحيوانية منظومات طريفة . واكتشفوا للشعر أوزاناً لم تكن معروفة وأتماصاً من القوافي كانت مجهولة .

ودرستُ دراسةً نقدية تاريخية أعلام الشعر في العصر ، وهم بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام ، وحاولتُ أن أرسم شخصياتهم الأدبية وأثرهم في تطور الشعر العربي وتجديده ، فأما بشار فسَنَّ للشعراء أن يزواجوا مزوجة

دقيقة بين عناصر الشعر التقليدية وعناصره التجديدية ، بحيث يتدافع فيه تيار القديم الموروث دون تعويق لتيار الجديد المستحدث وسيواله الحضارية والاجتماعية والعقلية . وكان تأثير هذه السيول في أبي نواس أشد عمقاً وأكثر حدّة ، فتعمّق مذاهب المتكلمين وأسرف على نفسه في اللهو والمجون . وعكف أبو العتاهية على الحكمة الفارسية والهندية واليونانية عكوفاً أفضى به إلى تنوع واسع في أشعار الزهد والمواظ والأمثال . وجذب مسلم بن الوليد الشعراء إلى أبنية الشعر المحكمة الشائخة مع التدقيق الشديد في المعاني والإكثار من ألوان البديع . أما أبو تمام فامتزج الشعر عنده بالفلسفة امتزاجاً رائعاً ، بحيث أصبح معروضاً باهراً لطرائف البديع وطرائف المعاني والأخيلة البارعة .

ووراء هؤلاء الأعلام كثيرون كان لكل منهم دور في تطور الشعر في العصر تطوراً يتفاوت قوة وضعفاً ، مما دفعني إلى رسم موجز لشخصياتهم وخصائصهم ، ووضعهم في فصائل متقابلة ، والتمست لكل فصيلة صفوة من يمثلونها ، فللسياسة ممثلوها ، وكذلك للمديح والهجاء والغزل والمجون والزندقة والزهد والنسك والاعتزال والنزعات الشعبية .

وانتقلت أدرس النثر وماحدث من تطوره وكثرة فنونه بتأثير ما ثقّفه الوعّاظ والمتكلمون والكتّاب من كنوز الثقافات والآداب الأجنبية . وقد نشطت الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ووعّاظ وقصص وقصّاص . ونفذ المتكلمون إلى فن نثرى مستحدث هو فن المناظرات ، ونموه ورقوا به رقيّاً بعيداً . وازدهر النثر الديواني وكل ما اتصل به من رسائل سياسية ومن عهود ووصايا وتوقيعات ، وجبّر الكتّاب كثيراً من الرسائل الإخوانية البديعة متناولين فيها الأغراض التي كان ينظم فيها الشعراء والتي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، ودبّج نقرّ منهم رسائل أدبية خالصة حلّلوها فيها النفس الإنسانية وأهواءها وسلوكها حيناً ، وحيناً حاكوا قصص كليلة ودمنة قاصدين بمحاكاتهم إلى التربية السياسية والاجتماعية .

وعُنت برسم شخصيات أعلام الكتّاب في العصر وآثارهم الأدبية ، وهم ابن المقفع وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات ، فأما ابن المقفع فنقل إلى العربية أروع ما تحمل لغته من ذخائر فارسية وغير فارسية ،

وكتتَبَ رسائل إخوانية وأدبية بديعة . وافتنَّ سهل بن هرون في كتابة رسائل قصصية وأخرى أدبية وإخوانية مع العناية بالازدواج وجمال الجرس والأداء . وبرع أحمد بن يوسف في كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية مُضْمِفاً على أساليبه كل ما يستطيع من صور التنميق . وحرص عمرو بن مسعدة على التأنق والاقتصاد المسرف في التعبير . ولم يكن ابن الزيات يتأنق في كتاباته ، غير أنه كان يُعْنَى بِحُسْنِ القَوْلِ وجزالة اللفظ ورصانته . واللهَ أسأل أن يُلْهَمَنِي السَّدَادَ والإخلاص في الفكر والقول والعمل ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

شوقي ضيف

القاهرة في أول ديسمبر سنة ١٩٦٦ م